السبـــــــــت 26-07-2008

330- تأَلّـــم: الصــــــــورة تطلــــــع "حقيقيـــــــــة"!!

تـعتعة

كـان ذلـك منـذ عشريـن عامـا تقـريـبـا: كـنـت فى بـوسطن، أزور صديقـا لم يـتـأمـرك تمامـا، وحين اقتربـنـا مـن مـنـزلـه حيّـانـا ابـنـه الـشـاب، بـأنـه: "هـاىْ"، (لم أكـن أعـرف بـعـد لـغـة: "الهـاىْ"-"يـالـلا بـاىْ"). انـطلق الـشـاب يـرطن بـالإنجلـيـزيـة الأمـريـكـانى، مـع أن أمـه امـرأة مـصريـة مـن شـبرا، وحين طـلـب والـده مـنـه تـصويـرنـا لـلـذكـرى، رحّـب الـشـاب، وقـال كـلـمـتـين بـالإنجلـيـزيـة لم ألـتـقـطـهـمـا، فـأفـهـمـنى والـده أنـه يـطـلـب أن "نـبـتـسـم"، ونحن نـنـطـق لـفـظ "شـيـيـز" Say Cheese، سـألـتـه: كـيـف؟، قـال: قـلـهـا وسـوف تـظـهـر أسـنـانـك فـتـبـدو ضـاحـكـا، (لم يـكـن فـيـلـم أحمـد زكـى قـد ظـهـر بـعـد) وافـقـت تـأدبـا، وحـاولـت أن أظـهـر أسـنـانى، فـبـدت - حين تـسـلـمـت الـصـورة- أنـنى كـشـرت عـن أنـيـابى لا أكـثـر، أخـذت أبحث عـن كـلـمـة بـالـعـربـيـة مـقـابـل كـلـمـة "تـشـيـيـز" ربمـا احـتـجـنـاهـا مـن بـاب الـعـولمـة، فـاهـتـديـت إلى كـلـمـة "مِـعِـيـيـزْ"، بـعـد أن مـرت بخـاطـرى كـلـمـات لا تـلـيـق.

حـضـرتـنى هـذه الـذكـرى، وأنـا أتـأمـل المـرة تـلـو المـرة صـور ابـتـسـامـات زعـمـائـنـا، ورؤسـائـنـا، ووزرائـنـا، أو حـتى صـورنـا مـع أعـدائـنـا الأصـدقـاء الألـداء، رحـت أتـسـاءل: يـا تـرى مـاذا يـقـول لهـم المـصـوّرون حـتى يـبـتـسـمـوا هـذه الابـتـسـامـات "الـنـصـف نـصـف" الـتى هـى هـى طـول الـوقـت؟ طـبـعـا لمـت نـفـسـى، فـالابـتـسـامـات الـدبـلـومـاسـيـة ضـروريـة لـلـشـىء لـزوم الـشـىء، لـكـن مـا هـو هـذا الـشـىء تحـديـدا، الـذى لـه كـل هـذا الـلـزوم والإلـزام؟

ثم تـصـادف أنـنى أعـيـد قـراءة مجـمـوعـة قـصـص لـيـوسـف إدريـس، وقـد تـوقـفـت أطـول عـنـد قـصـة "لـغـة الآى آى" (وهـو اسـم المجـمـوعـة)، خـصـوصـا وأن رئـيـس الـتـحـريـر "أبـا يحـيـى" قـد اسـتـشـهـد بهـا مـنـذ أيـام فى افـتـتـاحـيـتـه هـنـا، أثـنـاء الـقـراءة: تـعـاطـفـت بـداهـة مـع تـلـك الـبـقـايـا لـذلـك الهـيـكـل الآدمـى الـفـلاح المـصـرى الـعـجـوز "فـهـمـى" الـذى لم يـتـبـق مـنـه إلا مـسـتـقـبـلات الألم فى المـثـانـة المـتـهـتـكـة بـالـسـرطـان يـعـصـره عـصـرا، لـكـنـنى فى نـفـس الـوقـت تـعـاطـفـت مـع مـضـيـفـه ("الحـديـدى" الـشـاطـر الـنـاجـح جـدا) الـذى اسـتـيـقـظـت فـيـه شـهـامـتـه رغـمـا عـنـه حين آوى بـلـديـاتـه فـهـمـى مـتـورطـا، ثم إذا

بـه يستعيد حقه فى الحياة حين يعرف قيمة الألم ومعناه من خلال تقمصه آهات زميله القديم، بديلا عن غيبوبة الموت الذى هو فيه بكل ما حقق من نجاح، رأيت فهمى بهزاله وصدقه وألمه وهو يعانى ".. ألم سرطان المثانة حين يزحف مع الليل، حين تبدأ قطرات البول تتجمع" لتكويه كيا، كما رأيت سعادة الحديدى بألمه الشريف الذى تفجر فيه نتيجة تقمصه ألم ضيفه، فاكتشف من خلاله الحياة من جديد..، "..... كل الفرق أنه ليس له حق فى التوجع مثله" (مثل فهمى)، "...المقياس الوحيد للحياة هو أن تشعر بها، وأنا لم أشعر بها ..إننى أقضى حياتى كعملية حسابية دقيقة هدفها الوصول.."

توقفت أتساءل: أين كل هذا على الناحيتين ، من تلك الإبتسامات الرسمية المؤتمراتية الفاترة المصنوعة للتصوير الخارجى؟؟!!"

"الفرح" ليس عكس هذا الألم الذى أشير إليه، بل هو يبطنه!

السعادة هى جزء من هذا الألم الحى،

أما ما هو عكس هذا الألم فهى، البلادة ، واللذة المنفصلة، والاستسهال، والكذب.

أعرف أن الكتابة عن الألم غير معايشة الألم، وأن "اللى بينجلد غير اللى بيعِـدّ"، لكننى لا أعرف وسيلة أخرى تنقل إليكم،إلينا، إليهم، ما يصلنى من مرضاى ومن مبدعينا، وأحيانا من نفسى، عن شرف هذا الألم الخلاق، أتساءل بصراحة: هل يتألم وزاراؤنا ورؤساؤنا أصلا؟ متى؟ ولماذا؟ ولمن؟؟ هل من المحتمل، ولو أحيانا، أن يعايش أحدهم بصدق ألم الجوع والمهانة التى يعانى منها جموع الناس؟ هل أنا أحلم حين أتمنى أن يشعر بعض رجال الأعمال بألم الحياة والأحياء، وبألمهم شخصيا، بديلا عن هذا الموت التراكمى الذي يحبسون أنفسهم فيه داخل حجرات التحنيط الترفيهى، المبنية بحجارة أهرامات الشيكات والأوراق المالية ؟

حين حذرت من الانسياق وراء استعطاف الحكومة أو تهييج الناس بدموع البنات والأمهات الباكيات النائحات على صعوبة الامتحانات، كنت أحاول أن أنبه إلى خطورة الخلط بين ألم الشعور بالظلم (أهى جت على ناس ناس) وبين حق الناس الأساسى فى الألم الشريف الذى يبنى ويعلـِّم، إن الوعى بالألم الإنسانى، لنا ولغيرنا، هو من أرقى العواطف البشرية، ولهذا أعتب على زملائى أطباء النفس الذين يختزلونه عادة إلى ما يسمونه "الاكتئاب"؟

نحن نلغى شرف معايشتنا هذا الألم أولا بأول: بالاكتئاب الذى يحل محله ، أو بالدموع التى تجهضه، أو بالانسحاب الذى يغرى بتجنبه (بما فى ذلك انسحاب 67، وأيضا الإعلان من جانب واحد عن آخر الحروب، التى لا تنتهى قبل آخر الزمان !!)

شكرا لعمنا الشيخ حسن نصر الله، وهو يذكرنا بشرف الألم، وألم الشرف، فى عمق احتفالية استعادة الأسرى